مقدمة

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، الرحمة المهداة .

أما بعد ، فهذه دراسة لقريش وتاريخها ، أعان الله عليها ، ويسَّر أسبابها ، فتمت بمعونته ، وتيسرت بسابغ فضله ، فله - سبحانه - الفضل والمنة بداية ونهاية .

وفكرة القيام بدراسة لقبيلة قريش وتاريخها ، وأسباب قوتها وشفوفها على غيرها من قبائل الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده ، وصراعها مع الإسلام رغم طلوع رسول الله ﷺ من بين أظهرها ، ثم دخولها فيه ووصولها إلى رياسة دولته ، وما جرى عليها بعد ذلك من تصاريف الزمان وما كان لذلك من آثار فى تاريخ أمة الإسلام ، هذه كلها موضوعات دارت فى ذهنى من زمن طويل ، لأن قريشاً كانت العمود الفقرى للتاريخ الإسلامى فى معظم عصوره ، ولا يتأتى فَهْم هذا التاريخ على وجهه إلا إذا درس الباحث شأن قريش - وهى كانت دائماً من أصغر قبائل العرب حجماً ، وكيف ظهرت فى التاريخ ؟ وكيف تمكنت من بناء نفسها وسيادة غيرها من قبائل الجزيرة ، وبينها قبائل ضخمة كالشعوب ، من أمثال تميم والأزد وقضاعة وعبد القيس وهوازن وغطفان ، وصمودها فى صراع القبائل فى بحر الرمال والصخور قبل ظهور الإسلام .

هذه كلها موضوعات مباحث شائقة وشاقة فى نفس الوقت ، ولكنها ضرورية لمن يريد أن يدرس السيرة النبوية الجميلة وموقف قريش منها وانقسامها إلى قريش الإيمان وقريش الكفر ، وما كان من صراع بين القريشين ، وانتصار قريش الإيمان ،

وهى الأقل عدداً وثروة . واندراج قريش الكفر فيها ، ثم كيف وصلت عدوة الإسلام التى دخلت الدين فى السنة الحادية عشرة كما يقولون ، واقتدرت رغم ذلك على الوصول إلى رياسة أمة الإسلام ، واستطاعت تحويل الأمة المجاهدة إلى دولة ذات ملك وسياسة وغايات دنيوية ، وما كان لذلك كله من آثار بعيدة المدى فى تاريخ أمة الإسلام .

ولم أكن لأُقْدم على ولوج هذا الباب وأنا منصرف بكليتى إلى إنجاز أطلس تاريخ الإسلام وكتابة السيرة النبوية ، وكل منهما مطلب يستنفد العمر الطويل ، ولكن الظروف شاءت أن أكون فى مدينة الرياض فى خريف ١٩٨٢ ويضمنى مجلس أدب وعلم مع الأخ الأستاذ علوى طه الصافى فى دار الفيصل ، ويقترح الصديق أن أكتب عن قريش دراسة خاصة لمجلته « فى نحو عشرين صفحة » وأمضى وأشرع فى العمل، وبعد حين أستأذن الأخ فى أن نجعل الدراسة كتاباً صغيراً فى نحو مائتى صفحة ، ولا يزال الموضوع يتفتح أمامى والدراسة تستدرجنى من مطلب إلى مطلب ، ومن مرجع إلى مرجع ، وخدعنى البحث عن نفسى وعن نفسه فأجد نفسى فى النهاية أمام مادة بلا نهاية ، ويكون شأنى معها شأن واضع أى قاموس أو معجم ، فإن المشكلة مع واضع القاموس ليست : ماذا يضع فيه ، بل ماذا لا يضع ؟

ثم يلقانى الأخ الصديق الأديب الناشر محمد بن على الوزير ويقول : ضع كل ما تحب وأنا بِنَشْر ذلك زعيم ، فأتشجع وأمضى حتى أصل بالبحث إلى ما ترى ، وقد حررته وعدت عليه بالمراجعة والتدقيق وإعادة الكتابة مرة بعد أخرى ، ودفعت به إلى المطبعة وأنا جِدُّ متخوف ، فإن الميدان واسع ، والموضوعات متعددة معظمها جديد على البحث ، والموضوع فى جملته بالغ العسر ، ولكنى أطمع دائماً فى كرم القارىء وإحسانه ، وهذه على أى حال أول محاولة لمؤرخ محدث فى التأريخ لقريش منذ ظهورها على مسرح التاريخ إلى يومنا هذا ، ومن هنا فإن احتمالات الخطأ كثيرة والقارىء مرجو أن يحسب حساب هذا كله وهو يقرأ هذا الكتاب ، وإذا شاء أن يعتبر هذا الكتاب كله مجرد بداية لدراسة تاريخ قريش فذلك فضل منه وأريحية . وهذه المطالب يحاولها الباحث مرة بعد مرة ، ويراجع ما يقوله الناس فيه طوراً بعد طور

والعلم لا يعرف شيئاً اسمه الكلمة الأخيرة وخاصة فى موضوع بهذا الاتساع والأهمية .

والكتاب فى ذاتـه ضخم ، ولا يحسن أن أزيده طولاً بالإسـراف فى التقديم ، وإنما لا يحسن بى أن أختم هذه الكلمة دون أن أتقدم بالشكر إلى الأخوين الكريمين : إبراهيم الوزير ، ومحمد الوزير ، والصديق الدكتور محمود على مكى الذى أعاننى فى مراجعة بعض تجارب الطبع ، وتلميذى محمد فخرى الوصيف الذى شاركنى فى مهمة مراجعة الكتاب وتصحيح تجارب الطبع والإشراف على المراحل الأخيرة للفراغ منه ، والله سبحانه من وراء القصد والنية .

القاهرة : رمضان ١٤٠٦هـ / يونيو ١٩٨٦م .

خادم العلم
حسين مؤنس

obeikandl.com